انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية - دراسة في الأسباب والنتائج

The Hammadids moving from the AL Qal'a to Bejaia – a study of causes and Results

تاريخ الاستلام : 2020/05/29؛ تاريخ القبول : 2022/08/29

* د. خالد حموم

قسم التَّاريخ والآثار ،جامعة محمَّد لمين دباغين سطيف 2، (الجزائر).

ملخص

اتخذ الحمَّاديون بقيادة أميرهم حمَّاد بن بلكين قلعة بني حمَّاد عاصمةً لدولتهم في حدود سنة 398هـ/1007م، ومكثوا بها حوالي نصف قرن من الزمن، ثمَّ انتقلوا إلى بجاية في عهد أميرهم الخامس النَّاصر بن علناس سنة 461هـ/1069م، واتخذوها عاصمةً جديدة لدولتهم وأطلقوا عليها اسم النَّاصرية.

وقد تعددت أسباب انتقالهم إلى بجاية، وذكر المؤرخون سببين هامين هما تجنب زحف عرب بني هلال والازدهار الاقتصادي، وفيما يخص النتائج المتمخضة عن هذا الانتقال فأهمها على الإطلاق توفر الأمان، والتطور العلمي، وازدهار التجارة البحرية بفضل ميناء بجاية الضخم.

الكلمات المفتاحية: حمَّاد بن بلكين - قلعة بني حمَّاد – بجاية – النَّاصر بن علناس- المغرب الأوسط.

Abstract

Under the leadership of their Prince Hammad bin Belkin, the Hammadids seized the Qal'a of Bani Hammad and made it the capital of their state within the year 398 ah/1007 ad, and they stayed there for about half a century, then they moved to Bejaia during the era of their fifth Prince Al-Nasir bin Alnas in 461 ah/1069 ad, and they took it as the new capital of their state and called it Nasiriyah.

The reasons for their move to Bejaia have multiplied, and historians have mentioned two important reasons, avoiding the crawling of the Arabs of Bani Hilal and economic prosperity, as for the results of this transition, the most important of them is the availability of safety, scientific development, and the prosperity of maritime trade thanks to the huge Bejaia port.

Keywords: Hammad Bin Belkin - the Qal'a of Bani Hammad - Bejaia - Al-Nasir bin Alnas - Maghreb Central.

Résumé

Sous la direction de leur émir Hammad bin Belkin, les Hammadides ont pris la Qal'a (forteresse) de Bani Hammad comme capitale de leur État dans les années 398AH /1007 AD, et ils y sont restés pendant environ un demi-siècle. Ensuite, ils ont déménagé à Bejaia à l'époque de leur cinquième Emir Al-Nasir bin Alnas en 461 AH/1069AD, et ils l'ont prise comme nouvelle capitale de leur État, Et ils l'ont appelé Nasiriyah.

Les raisons de leur déménagement à Bejaia se sont multipliées et les historiens ont mentionné deux raisons importantes: éviter l'avancée des Arabes de Bani Hilal et la prospérité économique, et en ce qui concerne les résultats de cette transition, la plus importante d'entre elles est la disponibilité de la sécurité, le développement scientifique et la prospérité du commerce maritime grâce à l'immense port de Bejaia.

Mots clés: Hammad Bin Belkin - Qal'a Bani Hammad - Bejaia - Al-Nasir bin Alnas - Maghreb Central.

* Corresponding author, e-mail: khaled_dz2011@yahoo.fr

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2022.

1 – مقدمة:

تمكن الحمَّاديون مع نهاية القرن الرابع للهجرة (بداية القرن الحادي عشر للميلاد) من تأسيس دولة بزعامة حمَّاد بن بلكين الصنهاجي، وقد جعل هذا الأخير من قلعة بني حمَّاد عاصمةً لدولته الفتية، والتي عرفت مع مرور الوقت ازدهارًا كبيرًا في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وتعاقب على حكم الدَّولة الحمَّادية في القلعة أربعة أمراء، وفي عهد الأمير الخامس النَّاصر بن علناس انتقل الحمَّاديون من القلعة إلى عاصمتهم الجديدة بجاية.

وأحاول من خلال هذا البحث تسليط الضوء على هذا الحدث التَّاريخي البارز في حياة الدَّولة الحمَّادية وعليه أطرح الإشكالية التالية: ما هو سبب هذا الانتقال وما هي النتائج التي تمخضت عنه ؟

وقد طرحت من أجل الإجابة على هذه الإشكاليَّة العديد من التَّساؤلات: من هو حمَّاد بن بلكين ؟ كيف تأسست الدَّولة الحمَّادية ؟ وما هي الحروب التي خاضها الحمَّاديون من أجل تأسيس دولتهم ؟ وما هو موقف أبناء عمومتهم الزيريّيين من تأسيسهم لدولتهم ؟ لماذا تم اختيار القلعة عاصمة أولى لدولتهم ؟ وما مصير القلعة بعد انتقال الحمَّاديّين إلى بجاية ؟

وبالنِّسبة للمنهجيَّة التي تناولت بها الموضوع فتمثلت في السرد التَّاريخي للأحداث، وكانت عملية السرد اعتمادًا على المصادر وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابات التَّاريخيَّة، وتخلَّلت عمليَّة سرد الأحداث منهج التَّحليل والنَّقد لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفيَّة، وكثَّفت من الاستشهاد بالنُّصوص في المتن والهامش إمَّا دعمًا لرأي أو مُساندة لاستنتاج.

2- تأسيس الدَّولة الحمَّادية:

ارتأيت قبل الشروع في دراسة أسباب انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية والنتائج المتمخضة عن هذا الانتقال، للحديث عن كيفية تأسيس الحمَّاديّين لدولتهم.

ظهرت الدَّولة الحمَّاديَّة إلى الوجود أواخر القرن الرَّابع الهجري تحديدًا سنة 398هـ/1007م[1]، وقد أسَّسها "حمَّاد بن بلكين بن زيري بن مناد"[2] الذي إتخذ من قلعة بني حمَّاد (قلعة أبي طويل)[3] عاصمةً لدولته النَّاشئة[4].

وقد شُيِّدت قلعة بني حمَّاد على منحدر وعرٍ فوق سفح جبل تقربوست[5] على الحدود الشماليَّة لسهل الحضنة وعلى مسافة ستة وثلاثون كيلومتر من ولاية المسيلة وبالتَّحديد ببلدية المعاضيد دائرة أولاد دراج حاليًا، وغير بعيدة كثيرًا من ولاية برج بوعريريج ومدينة برج غدير التي سبقت بناء القلعة حيث ترجع إلى العهد الروماني[6].

ويحد القلعة شرقًا واد فرج الذي يجري من الشمال إلى الجنوب وعرف باسم وادي جراوة في العهد الحمَّادي، ويحدها غربًا قمة الغورين الشَّاهقة (1190 متر) التي لا يفصل بينهما وبين جبل الرَّحمة سوى مضيق يمكن الدِّفاع عنه بسهولة، ومن الجنوب يحدها طريق كثير التَّعاريج يساير وادي فرج[7].

وفي مدة قصيرة بلغت حوالي عامين أتمَّ حمَّاد بن بلكين بناء القلعة، فلم يأت رأس السنة الرَّابعة للهجرة حتَّى كانت الشوارع مكتظة والمساجد زاخرة والفنادق عامرة حيث رحل إليها من الثغور والقاصيَّة والبلاد البعيدة أرباب الصِّناعة والتِّجارة وأهل العلم والطلبة، وظل حمَّاد بن بلكين يفتح الحصون والقرى ويضمُّها إلى ولايته[8].

وقد ذكر المؤرخون العديد من الأسباب التي جعلت حمَّاد بن بلكين يُشيِّد القلعة ويتخلى تدريجيًا على مدينة أشير[9]التي جعلها أبناء عمومته الزيريّين واليًا عليها بعد انتقالهم إلى عاصمة العُبيديّين (الفاطميّين) في بلاد المغرب المهديَّة، ومن أهم هذه الأسباب الموقع الإستراتيجي والعسكري للقلعة حيث شكلت حصنًا منيعًا للحمَّاديين عندما اشتدت بهم الخطوب، لأنَّ أشير التي كانوا يقيمون بها أصبحت غير صالحة

نتيجة لقربها من مضارب قبائل زناتة التي كانت دائمًا تهدد ملكهم بالسقوط، كما أنَّ القلعة تتميز بالحصانة الطَّبيعيَّة لأنَّه لا يوجد أي منفذٍ يصل إليها إلاَّ من جهة واحدة يمكن مراقبته بكل سهولة[10]، بالإضافة إلى سهولة مراقبة المدن التَّابعة لملك حمَّاد بن بلكين مثل قسنطينة، المسيلة، سوق حمزة، أشير، بسكرة وغيرها وهذا نتيجة وقوع القلعة وسط هذه المدن، كما أنَّ القلعة تقع في منطقة تتميز بكثرة تحركات القبائل الرحل الذين يقومون بالتَّنقل بين الواحات الصَّحراويَّة وبذلك يكون التَّحكم في تحركات هذه القبائل سهل[11].

وهناك سبب آخر يمكن إدراجه يكمن في رغبة حمَّاد بن بلكين في إقامة دولة مستقلة عن الدَّولة الزيريَّة في تونس وهذا عن طريق إنشاء مدينة جديدة يتخذها عاصمةً لدولته[12].

3- أسباب الانتقال إلى بجاية:

اختلف المؤرخون كثيرًا في تحديد سبب انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية[13]، حيث يرى صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار بأنَّ السبب يكمن في تضيّيق أعراب بني هلال وبني سُليم وغيرهما على قلعة بني حمَّاد وتهديدها بالسقوط، حيث يقول "أنَّ صاحب القلعة المنصور بن النَّاصر نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا على بلاده، وكان يصانعهم حتَّى ضاق ذرعًا بهم، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده، فطلب موضعًا يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب، فدل على موضع بجاية وكان مرسى، ويقال أنَّه كانت فيه آثار قديمة وأنَّها كانت مدينة فيما سلف، فبناها المنصور، وسماها المنصورية، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية، واتخذها دار مملكتهم"[14].

كما يرى صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار أنَّ حصانة بجاية الطبيعية كانت من الأسباب التي شجعت الحمَّاديّين على الانتقال إليها حيث قال "بأنَّها مدينة عظيمة مابين جبال شامخة قد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجنوب، ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير، وطريق القبلة إلى قلعة بني حمَّاد على عقاب و أوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق، وليس لها طريق سهلة إلَّا جهة الغرب، فلم يكن للعرب إليها سبيل، ولا كان يدخل من العرب إلَّا من يبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها، فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر"[15].

بينما يرى ابن الأثير بأنَّ الانتقال يرجع إلى نصيحة محمَّد بن البَعبَع [16]رسول تميم بن المعزّ إلى النَّاصر بن علنَّاس، حيث أشار عليه ببناء بجاية والانتقال إليها ويتخذه دار ملك لكي يقترب من إفريقيَّة ويمتلك المهديَّة وغيرها من مدن أبناء عمومته الزيريّين، وقد قال له "أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك فأجابه النَّاصر إلى ذلك وسار معه إلى بجاية، فأراه ابن البَعبَع موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته إذا عاد إليه"[17].

في حين يرجعه الحموي إلى رغبة النَّاصر بن علنَّاس في تحصيل الآمان للحمَّاديّين من كيد أعداءهم ولكي تعم الفائدة بأن تزدهر الصّناعة في بجاية، ويذكر هو الآخر نصيحة محمَّد بن البَعبع رسول تميم بن المعز إلى النَّاصر بن علنَّاس الذي ذهب لإصلاح حالٍ كانت بينهما فاسدة، حيث يقول "فمرَّ ابن البَعبَع بموضع بجاية وفيه أبيات من البربر قليلة فتأمَّلها حقَّ التأمُّل فلما قدم على النَّاصر غدر بصاحبه وستخلى بالنَّاصر ودلَّه على عورة تميم وقرَّر بينه وبين النَّاصر الهرب من تميم والرجوع إليه، وأشار عليه ببناء بجاية وستركبه وأراه المصلحة في ذلك والفائدة التي تحصل له من الصناعة بها وكيّد العدوّ، فأمر من وقته بوضع الأساس، وبناها ونزلها بعسكره"[18].

وعن رأي الحِميري حول سبب الانتقال، فقد نقل كلامه من صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار حرفيًا[19]، وأضاف عليه فقط بيت شعري نقلًا عن

أحد الشعراء دون تسميته، يبين فيه صعوبة تضاريس بجاية حيث قال:

بجاية كلها عقاب حَلَّ لمن حلها عِقاب[20]

في واقع الأمر لم يكن الاختلاف بين المؤرخين في سبب انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية فقط، بل اختلفوا في تاريخ انتقالهم، ومَنْ مِن الأمراء الحمَّاديّين حدث الانتقال في عهده، حيث يرى كلٌ من الحموي وابن الأثير والذهبي أنَّ الانتقال كان في عهد النَّاصر بن علنَّاس سنة 457هـ/1065م[21]، وهو الرأي الذي ذهب إليه ابن الخطيب لكن لم يحدِّد التَّاريخ[22]، أمَّا صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار فلم يحدِّد التَّاريخ فقال أنَّ المنصور بن النَّاصر بن علنَّاس هو الذي بنا مدينة بجاية وانتقل إليها بعد موقعة سبيبة[23]وسماها المنصوريَّة[24]، ويذكر الحِميري الرأيين معًا حيث نسب بناء بجاية سنة 457هـ/1065م إلى النَّاصر بن علنَّاس الذي أطلق عليها اسم النَّاصريَّة، وذكر الرأي الآخر نقلًا عن صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار الذي ينسب فيه بناء بجاية إلى المنصور بن النَّاصر والذي سماها المنصوريَّة[25]. بينما يرى ابن خلدون أنَّ بناء بجاية كان سنة 460هـ/1068م، وانتقال النَّاصر بن علنَّاس إليها حدث سنة 461هـ/1069م[26].

وقد وجدت صعوبة كبيرة في التَّرجيح بين آراء المؤرخين، للوصول إلى التَّاريخ الصحيح للانتقال، كون صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار المعاصر للدَّولة الحمَّادية لم يحدِّد التَّاريخ بدقة. وأعتقد أنَّ الأرجح هو سنة 457هـ/1065م لأنه رأي أغلبية المؤرخين وهم الحموي وابن الأثير والذهبي، كما أنَّ هؤلاء المؤرخين قريبين للحدث بالمقارنة مع ابن خلدون المتأخر نسبيًا.

وفيما يخص الأمير الحمَّادي الذي انتقل من القلعة إلى بجاية، فالمؤكد أنَّه النَّاصر بن علنَّاس، وليس ولده المنصور، على اعتبار أنَّه رأي الأغلبية، كما أنَّ صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار رغم أنَّه معاصر للحدث إلَّا أنَّه ينفرد لوحده بالقول أنَّ المنصور هو الذي نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية، أمَّا الحِميري فقد نقل كلامه في هذا الشأن عن صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار حرفيًا.

وأقدم دليل آخر رغم أنَّه غير مقنع كثيرًا، حول الانتقال، بأنَّه كان في عهد النَّاصر وليس ولده المنصور، يتمثل في كون سكان بجاية في زماننا هذا حفظوا التَّاريخ جيدًا وكانت ذاكرتهم قوية رغم مرور عدَّة قرون، فقد خلَّد هؤلاء اسم أوَّل أمير حمَّادي ينتقل إلى مدينتهم ويقوم ببنائها ويتخذها عاصمةً لدولته وهو النَّاصر بن علنَّاس، حيث يوجد في وسط مدينة بجاية حي يدعى النَّاصرية نسبةً له، وبهذا الحي توجد متوسطة تحمل اسم النَّاصر بن علنَّاس، يسميها أهل بجاية اختصارًا متوسطة النَّاصرية.

وأشير إلى أنَّ الإدريسي لم يذكر تاريخ وسبب انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية واكتفى بالقول أنَّ بجاية عمرت بخراب القلعة[27]، وهذا يدعوا للحيرة والدهشة على اعتبار أنَّه معاصر للدَّولة الحمَّادية. ووجدت أيضًا أنَّ الإدريسي ذكر بجاية في موضع واحد باسم النَّاصرية وهي إشارة إلى أنَّ أول أمير حمَّادي ينتقل من القلعة إليها هو النَّاصر بن علنَّاس[28].

من خلال ما سبق أرى أنَّ السبب الرئيسي في انتقال النَّاصر بن علناس من القلعة إلى بجاية هو التَّخلص من خطر الأعراب الذين هددوا القلعة بالسقوط، فعمل النَّاصر بنصيحة رسول تميم بن المعز محمَّد بن البَعْبَع وانتقل إلى بجاية المحصنة طبيعيًا من الأخطار الخارجية حيث يحيط بها البحر والجبال من كل الجهات ما عدا الجهة الغربية التي يمكن تحصينها بوضع جميع قوات الجيش لرد العدوان عليها.

4- نتائج الانتقال إلى بجاية:

تمخض عن انتقال الحمَّاديّين من عاصمتهم الأولى قلعة بني حمَّاد إلى عاصمتهم الثانية بجاية العديد من النتائج يمكن حصرها فيما يلي:

تحصيل الأمان، حيث أصبح الحمَّاديون أكثر أمان في مدينة بجاية لحصانتها الطبيعية[29]، فهي ليست مكان مفتوح مثل القلعة التي يمكن الوصول إليها من جميع الجهات، فبجاية يحيط بها البحر والجبال من ثلاث جهات، والجهة المتبقية دون شك الحمَّاديون قاموا بحراستها بشكل جيد كي لا يدخل الأعداء والمتربصين منها.

توسع رقعة الدَّولة الحمَّادية لمَّا انتقل الحمَّاديون إلى بجاية وجعلوها عاصمةً لهم، ونستدل ذلك من شهادة ابن الخطيب حيث قال أنَّ النَّاصر بن علناس اتسعت مملكته إلى أن بايعه أهل القيروان في سنة ستين وأربعمائة (460هـ/1069م)[30]. وبدون شك أنَّ هذه المبايعة لأهل القيروان جاءت بعد أن ضعفت دولتهم الزيريَّة خاصةً بعد هزيمتهم في معركة جندران ضدَّ أعراب بني هلال سنة 442هـ/1050م[31]، واستيلاء الأعراب على القيروان بعد ذلك، فرأوا أنَّ النَّاصر بن علناس أصبح أميرًا قويًا جديرًا بالمبايعة. وبيَّن صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار أيضًا المكانة المرموقة التي بلغها أمراء بني حمَّاد، حيث قال عن المنصور بن النَّاصر أنَّه كان في مُلك شامخ وعزٍّ باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر"[32].

الازدهار الاقتصادي، حيث تطورت زراعة بجاية وصناعتها، وساهم مينائها في تنشيط تجارتها الخارجية مع أوروبا ودول العالم الإسلامي، وقد تحدث عن ذلك الرحالة والجغرافيون مثل الإدريسي الذي وصف أحوال بجاية الاقتصادية وما تحويه من صناعة وزراعة وتجارة خلال العهد الحمَّادي حيث قال "ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حمَّاد، والسُّفن إليها مقلعة، والقوافل مُنحطة، والأمتعة إليها برًا وبحرًا مجلوبة والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، و بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، و بها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بوادٍ ومزارع والحنطة والشعير بها موجودة بكثرة والتِّين وسائر الفواكه بها، منها ما يكفي لكثير من البلاد. و بها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب، والسُّفن والحرابى، لأن الخشب في أوديتها وجبالها موجودة بكثرة. ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة، والقطران، و بها معادن الطيب موجودة وممكنة، و بها من الصناعات كل غريبة ولطيفة"[33].

كما تحدث صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار عن خيرات بجاية وزراعتها في العهد الحمَّادي حيث قال "ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والأثمار، وجميع الخَيارات وهي مشرفة نزيهة، ومطلَّة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبال دوره نحو عشرة أميال، تسقيه أنهار وعيون، وفيه أكثر بساتينهم. وله نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما، وعليه كثير من جناتهم، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر، وله منتزه عظيم"[34].

ويسترسل صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار في الحديث عن صناعة بجاية وتجارتها الخارجية حيث قال أنَّ بجاية "لها داران لصناعة المراكب وإنشاء السُّفن، وفيها مرسى عظيم تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها، ومن أقصى بلاد الروم، وسُفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن، والهند، والصين وغيرها"[35].

وأشار الحموي بدوره لغنى مدينة بجاية وأهمية مينائها البحري حيث قال "بجاية هي قاعدة ملك بني حمَّاد، وتسمى النَّاصرية أيضًا باسم بانيها، وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخصُّها من المنافع شيءٌ، إنما هي دار مملكة تركب منها السفن وتسافر إلى جميع الجهات"[36].

التطور العلمي حيث أصبحت بجاية في العهد الحمَّادي قبلة للعلماء وطلبة العلم الذين جاءوا إليها من مشارق الأرض ومغاربها، ومن كل حدب وصوب، فقد توافد إليها طلبة العلم والدارسين من مختلف مدن المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، ومن بلاد المشرق الإسلامي ومن أوروبا، فتعلموا فيها علومًا عديدة كالرياضيات،

والفيزياء، والأدب، والتَّاريخ، والفلسفة، والعلوم الشرعيَّة. وحسب رواية أبي حامد الصغير الحسن بن محمَّد المسيلي فإنَّ بجاية وحدها كان بها تسعون مفتيًا أواخر القرن السَّادس الهجري كما كان بها أطباء وحكماء متضلعون في الفلسفة والحكمة وعلم التَّوحيد، وبها لغويّين مبرزون وشعراء فحول ورياضيون مبتكرون ومحدثون أمناء ومتصوفون في القمة. وحتَّى العوام والعُمي في بجاية كانوا يحفظون عن ظهر قلب كتب البخاري والمدونة والموطأ ويشرحونها للنَّاس من ذاكرتهم. ومن أبرز علماء الفترة الحمَّادية نذكر الفضيل بن سلمة البيجائي والرحالة المقرئ أبو القاسم يوسف البسكري، والفقيه الفيلسوف محمَّد بن علي بن الرمامة، والفقيه أبو عبد الملك مروان البوني واللغوي النحوي الحسن بن علي التيهرتي والعلامة يوسف الورجلاني والفقيه الفيلسوف أبو حامد الصغير المسيلي وغيرهم[37].

ونلمس أيضًا تطورًا علميًا كبيرًا لمدينة بجاية خلال العهد الحمَّادي في الجانب العمراني فقد بنا الحمَّاديون المساجد، المدارس، الفنادق، الأسواق، والقصور وغيرها[38]، ومن أشهر قصور بجاية نذكر قصر اللؤلؤة الذي قال عنه صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار أنَّه "لم يرى الراءون أحسن منه بناءً، ولا أنزه موضعًا"[39]، وقال عنه ابن خلدون كان من أعجب قصور الدنيا[40].

وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى أنَّ الجانب العلمي في القلعة كان على قدر كبير من التطور والازدهار، فقط في بجاية أصبح أكثر تطورًا وازدهارًا للاعتبارات السابقة الذكر، ويشهد الفن المعماري في القلعة على ازدهار الميدان العلمي ككل، حيث بنا الحمَّاديون القصور، المساجد، الفنادق، الحمامات، والأسواق وغيرها، ومن أهم مباني القلعة وعمرانها على الإطلاق القصور وكانت هذه القصور غاية في الإبداع والإتقان الفني، ومنها قصر يسمى بدار البحر الذي يقع في وسط المدينة على مسافة 150 متر من المسجد ويرجَّح أنَّه هو نفسه قصر الملك، وهناك قصور أخرى وهي قصر المنار والكوكب وقصر السَّلام وقصر حماد وقصر العروسين. كما ظهر الكثير من العلماء في القلعة وتذكرهم كتب التراجم السِّير بأسمائهم مع إضافة مكان إقامتهم أو ميلادهم بقولهم القلعي نسبة إلى قلعة بني حماد[41].

تحولت بجاية إلى مدينة عالمية، فقد شجع النَّاصر بن علناس النَّاس على الانتقال إليها بعد أن أسقط عليهم الضرائب[42]، كما سمح لليهود والنصارى بممارسة التجارة وشعائرهم الدينية بكل حرية، وقام بافتداء جميع أسرى النَّصارى في مملكته وأرسلهم إلى البابا جريجوري السابع، كما وعده بأن يفتدي ما بقي من أسرى ويبعثهم إليه[43].

5- خاتمة:

يعتبر انتقال الحمَّاديّين من عاصمتهم الأولى قلعة بني حمَّاد إلى عاصمتهم الثانية بجاية حدثًا تاريخيًا بارزًا في عمر الدَّولة الحمَّادية.

لم ينتقل الحمَّاديون من القلعة إلى بجاية بدون دراسة وتمحيص، بل كان بعد قراءة متمعنة للظروف السائدة آنذاك، فلم ينتقل النَّاصر بن علناس حتَّى زار مدينة بجاية رفقة رسول تميم محمَّد بن البَعبَع واطلع بنفسه على حصانتها الطبيعية وأهميتها الاقتصادية.

أسباب انتقال الحمَّاديّين من القلعة إلى بجاية عديدة جدًا، البحث عن الأمان والتطور الاقتصادي يعتبران سببين رئيسيين لهذا الانتقال.

أسفر هذا الانتقال إلى بجاية عن توسع رقعة الدَّولة الحمَّادية أكثر مما كانت عليها حينما كانت القلعة عاصمة للدَّولة.

أصبحت بجاية مدينة عظيمة حينما انتقل إليها الحمَّاديون، فكانت بدون منازع قاعدة المغرب الأوسط وأهم مدنه آنذاك، وازدهرت في شتى المجالات الاجتماعية، الاقتصادية، العلمية والدِّينيَّة.

تحولت تجارة الحمَّاديّين من تجارة برية إلى بحرية، لأنَّ النشاط التجاري في

القلعة غلب عليه الطابع البري، وحينما انتقلوا إلى بجاية أصبحت تجارتهم بحريةً أكثر مما هي برية، وهذا بفضل ميناء البحري.

لعب ميناء بجاية دور هامًا في انفتاح الحمَّاديّين على العالم الخارجي، حيث أسهمت حركة التجارة الخارجية في الاتصال مع باقي بلدان العالم خاصة مع الأندلس وأوروبا ودول العالم الإسلامي.

- الملاحق:

الملحق عبارة عن قصيدة للشاعر الحسن بن الفكون القسنطيني يتغنى فيها بجمال طبيعة مدينة بجاية (النَّاصريَّة):

دَعِ العِراق وبغدادَ وشَامِهِمَا ... فالنَّاصِريَّةُ ما إنْ مِثْلُهَا بَلَدُ
بَرٌّ وبحرٌ وموجٌ للعيُونِ بِهِ ... مَسَارِحٌ بَانَ عنها الهمُّ والنَّكَدُ
حيث الهوى والهواءُ الطَّلْقُ مجتمِعٌ ... حيث الغِنَى والْمُنَى والعيشةُ الرَّغَدُ
والنَّهر كالصُّلِّ والجَنَّاتُ مُشرقةٌ ... والنَّهر والبحر كالمرآة وهو يَدُ
فحيثما نَظرتَ رَاقَت وكل نوا ... حي الدَّارِ للفكرِ للأبصارِ تَتَّقِدُ
أنْ تنظر البَرَّ فالأزهار يانعةٌ ... أو تنظر البحر فالأمواج تَطَّرِدُ
يا طالبًا وصفها إنْ كُنت ذا نَصَفٍ ... قُل جنَّةُ الخُلد فيها الأهل والولد(44)

- الهوامش:

1) ابن خلدون: **العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر**، منشورات مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ج6، 1971م، ص171 ؛ إسماعيل العربي: **دولة بني حمَّاد ملوك القلعة وبجاية**، الشركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، د. ت، ص119.

2) يرجع نسب حمَّاد بن بلكين إلى زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر بن صنهاج الأكبر إلى قبيلة صنهاجة البربريَّة (الأمازيغيَّة) لم يذكر المؤرخين تاريخ ميلاده، ولكنهم أسهبوا في وصف صفاته حيث قال عنه صاحب الاستبصار كان له دهاء وفطنة وتجربة في الحروب، وكانت له فراسة حسنة وذكاء وله أخبار مشهورة محفوظة، وقال عنه ابن الخطيب كان نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه، ملكًا كبيرًا وشجاعًا ثبتًا، وداهيةً حصيفًا، قد قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في كتب الجدل، حدثت بينه وبين ابن أخيه باديس بن المنصور صاحب إفريقيَّة حروب ومعارك، أعقبته فترات من الصلح والتَّفاهم، اتخذ من قلعة بني حماد التي أسَّسها سنة 398هـ/1007م عاصمةً لدولته، توفي في شهر رجب سنة 419هـ/1028م ودفن بالقلعة، غير أنَّ المؤرخ ابن الأثير يذكر بأنَّه توفي سنة 417هـ/1026م، وولَّى بعده ابنه القائد. (انظر: ابن الأثير: **الكامل في التَّاريخ**، راجعه وصحَّحه محمَّد يوسف الدَّقاق، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، مج8، 1987م، ص157 ؛ ابن الخطيب: **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثَّالث من كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي، محمَّد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص85-86 ؛ مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثَّقافيَّة العامَّة أفاق عربية، بغداد، العراق، د.ت، ص168 ؛ عبد الحليم عويس: **دولة بني حمَّاد صفحة رائعة من التَّاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، دار الوفاء للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، المنصورة، ط2، 1991م، ص48 وما بعدها).

3) يذكر صاحب الاستبصار أنَّ قلعة بني حمَّاد هي نفسها قلعة أبي طويل، ويبدو أنَّ مدينة قلعة بني حمَّاد أُسِّست على أنقاض قلعة أبي طويل. (انظر: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص167 ؛ مختار حساني: **الحواضر والأمصار الإسلاميَّة الجزائريَّة**، دار الهدى للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ج1، 2011م، ص129-130).

4) إسماعيل العربي، **المرجع السَّابق**، ص119 .
5) تقربوست معناها باللغة البربريَّة (الأمازيغيَّة) السرج، وهذه التَّسميَّة هي التي حوَّلها العرب إلى جربيسة. وقد اختلف المؤرخون في تسميَّة الجبل الذي بُنيت فيه قلعة بني حمَّاد حيث يذكر ابن الخطيب بأنَّها شُيِّدت في موضع يُسمى غياثا، ولعله يقصد اسم الجبل الذي بُنيت فوقه، بينما يذكر ابن خلدون بأنَّها شُيِّدت في جبل عجيسة وهو نفسه جبل كتامة، ويُعرف أيضًا باسم جبل تقربوست، وجبل كيانة، ويُسمى في الوقت الحاضر جبل المعاضيد. (انظر: **أعمال الأعلام**، ص85-86 ؛ **العِبر**، ج6، ص171 ؛ إسماعيل العربي، **المرجع السَّابق**، ص119، هامش2).
6) مختار حساني، **المرجع السَّابق**، ج1، ص129.
7) إسماعيل العربي، **المرجع السَّابق**، ص119.
8) ابن خلدون، **المصدر السَّابق**، ج6، ص171 ؛ محمَّد الطمَّار: **المغرب الأوسط في ظل صنهاجة**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 2010م، ص92.
9) أشير، بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة، من بلاد الزاب بناها زيري بن مناد الصَّنهاجي سنة 324هـ/936م وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وإنَّما بنا زيري سورها وحصَّنها وعمَّرها فليس في تلك الأقطار أحصن منها، وهي بين جبال شامخة محيطة بها. (انظر: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص170 ؛ الحِميري: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عبَّاس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص60).
10) مختار حساني، **المرجع السَّابق**، ج1، ص129 وما بعدها.
11) محمَّد الطمَّار، **المرجع السَّابق**، ص93.
12) مختار حساني، **المرجع السَّابق**، ج1، ص130-131.
13) عُرفت مدينة بجاية في القديم باسم صلداي أو صلدة، تعاقب على حكمها في الفترة القديمة الفينيقيون والنوميديون والرومان والوندال والبيزنطيون.

Djamil AISSANI: **Béjaia et sa Région à Travers les Siècles: Histoire, Société, Sciences, Culture**, Article publié dans Actes du colloque Béjaia ville D'histoire et de civilisation (Béjaia, le 30 et 31 octobre 2012) Publication de la faculté des Sciences Humaines et Sociales, Université Abderrahmane Mira de Béjaia, 2013, p127.

14) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص129.
15) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص129-130.
16) لم أعثر في المصادر التَّاريخية على ترجمة وافية لمحمَّد بن البَعبَع، ووجدنا إشارات قليلة جدًا عند الحموي وابن الأثير، وقد قال عنه هذا الأخير أنَّه كان رجل غريب عن البلاط الزيري بإفريقية، أحسن إليه الأمير الزيري تميم بن المعز وأعطاه أموالًا وأملاكًا. أرسله إلى النَّاصر بن علناس لعقد الصلح بينهما، كانت نهاية القتل، حيث قتله تميم بعد أن اتهمه بخيانته والغدر به، والتحالف سرًا مع الناصر بن علناس. (انظر: **مُعجم البلدان**، دار صادر، بيروت، مج1، 1977م، ص339 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، مج8، ص373 وما بعدها).
17) **الكامل في التَّاريخ**، مج8، ص373-374.
18) **مُعجم البلدان**، مج1، ص339.
19) للتأكد من أنَّ الحِميري نقل كلامه حرفيًا من صاحب الاستبصار. (انظر: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص128 وما بعدها ؛ **الرَّوض المعطار**، ص81).
20) **الرَّوض المعطار**، ص81.

21) **مُعجم البلدان**، مج1، ص339 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، مج8، ص373 وما بعدها؛ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، مج30، 1994م، ص289.
22) **أعمال الأعلام**، ص96.
23) هي معركة ضارية دارت رحاها بمدينة سبيبة على مقربة من القيروان سنة 457هـ/1065م بين العرب والحمَّاديّين بقيادة أميرهم النَّاصر بن علناس، انتهت بانتصار العرب بعدما تحالفوا مع الزيريّين. (ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، مج8، ص372-373 ؛ **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص128-129).
24) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص129.
25) **الرَّوض المعطار**، ص81.
26) **العِبر**، ج6، ص174.
27) **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1983م، ص162.
28) **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص194.
29) عن تغني الشعراء بطبيعة مدينة بجاية وجمالها الأخاذ. (انظر: **الملحق المرفق بالمقال)**
30) **أعمال الأعلام**، ص96.
31) هذه المعركة يسميها ابن الأثير جندران وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام ويقول أنَّها حدثت سنة 442هـ/1050م، بينما يسميها ابن عذارى بمعركة جبل حَيْدَرَان وقال أنَّها حدثت سنة 443هـ/1051م، وكانت المعركة بين الزيريّين بقيادة المعز ومعه ثلاثين ألف فارس وأعراب بني هلال، وانتهت بانتصار الأعراب بثلاثة آلاف فارس فقط. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج8، ص296-297 ؛ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س.كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، ج1، 1983م، ص288 وما بعدها).
32) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص130.
33) **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص161. (هذا الكلام موجود عند الحِميري، مع اختلافات بسيطة جدًا مع الإدريسي. انظر: **الرَّوض المعطار**، ص81).
34) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص130. (نقل الحِميري هذا الكلام حرفيًا من صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار. انظر: **الرَّوض المعطار**، ص81).
35) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص130.
36) **مُعجم البلدان**، مج1، ص339.
37) يحي بوعزيز: **الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ج1، 2007م، ص160-161 ؛ عبد الحليم عويس، **المرجع السَّابق**، ص247 وما بعدها.
38) اختار النَّاصر بن علناس لبناء عاصمة دولته الجديدة بجاية أفضل الصناع والعمال، وفي بضعة أشهر أحاط المدينة بسور ضخم يمتد لضفة البحر، يتخلله حصون.

Laurent-Charles FERAUD: **Histoire de Bougie**, Préface Djamil Aissani, editions talantikit, Béjaia, 2013, p63.

39) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص130.
40) **العِبر**، ج6، ص174.
41) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص97 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص175 ؛ إسماعيل العربي، **المرجع السَّابق**، ص124 وما بعدها ؛ عبد الحليم عويس،

المرجع السَّابق، ص276 وما بعدها.

42) بومهلة تواتي: **بجاية حاضرة البحر ونادرة الدَّهر**، دار المعرفة، الجزائر، د.ت.

Laurent-Charles FERAUD: **opcit**, p62.

43) نشأت علاقة ودية متينة بين النَّاصر بن علناس وجريجوري السابع، وتبادل معًا الهدايا والرسائل. (انظر: إسماعيل العربي، **المرجع السَّابق**، ص176 وما بعدها).

Laurent-Charles FERAUD: **opcit**, p65-66.

44) الغُبريني: **عُنوانُ الدِّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص3.